الخبير الدولي لويس فوندبرايدر: الى أهالي المفقودين هذا ما عليكم فعله

منال شعيا
manal.chaaya@annahar.com.lb

معتقلون ومفقودون: مأساة عمرها من زمن الحرب، وحلولها مؤجلة في مرحلة السلم. أهالي وأفراد عائلات لم يوفروا وسيلة الا اعتمدوها، علّها توصلهم الى حقيقة مصير ابنائهم واقاربهم، وعلى مرّ الاعوام بقي الانتظار رفيقهم الوحيد.

الخبير لويس فوندبرايدر.

اقفل ملف الاسرى مع اسرائيل العدوة، وعاد بعضهم احراراً وآخرون رفاتاً، حتى العديد من الاسرى العرب عادوا الى بلادهم، فيما المعتقلون اللبنانيون في السجون السورية "الشقيقة" قابعون الى أجل غير محدد، اما المفقودون الآخرون فمختفون داخل مساحات الوطن، ينتظرون اجتماعات لجان رسمية، تتوقف حينا وتنشط احيانا، ولكن بلا جدوى.

ولان عامل الوقت يصير العدو الاول في هذه القضية الانسانية، ولاسيما ان ثمة بشراً مهددون بالموت في كل ثانية، رفع اهالي المعتقلين والمفقودين الصوت عاليا خلال تحركهم الاخير على طريق القصر الجمهوري، وطالبوا الرئيس ميشال سليمان، قبيل زيارته لسوريا، بايجاد حل سريع لملفهم وفق آليات عملية محددة. هذه الاليات شرحتها المذكرة التي وقعتها 16 جمعية اهلية، وقدمت الى سليمان وابرزت اولويات عدة منها: "انشاء قاعدة معلومات للحمض النووي عبر اجراء فحوص لجميع اهالي المفقودين على الاراضي اللبنانية وانشاء لجنة وطنية مستقلة ومحايدة وتحديد المقابر الجماعية، والاهم المطالبة بلجنة دولية تملك كل الصلاحيات للتحقيق في مصير المختفين قسراً في السجون السورية (...)".

الميدان - المختبر

حتى الساعة، لم يكل اهالي المعتقلين. فهم لا يزالون معتصمين في خيمة منذ ثلاثة اعوام، ينامون بالقرب من صور اولادهم ويشاركون في كل المؤتمرات التي تعنى بقضيتهم. آخر هذه المؤتمرات كان ورشة عمل عقدت بعيدا من الاعلام، ونظمها مركز "أمم للتوثيق والابحاث" بمشاركة خبراء دوليين وممثلين عن جمعيات "سوليد" و"سوليدا" و"لجنة اهالي المخطوفين في لبنان" وشخصيات قانونية وطبية. ولعل ابرز المشاركين الخبير الدولي لويس فوندبرايدر الذي شرح للاهالي الاليات المفترض تطبيقها في اي عمل لتقصي الحقائق ومعرفة مصير اختفاء المواطنين، فأكب خلال يومين متواصلين على توضيح التقنيات اللازمة للكشف عن انتهاكات حقوق الانسان، وتحديد طريقة نبش المقابر وتعيين اسباب الوفاة والتعرف الى هويتها، معدداً الخطوات العملية التي من شأنها ان تساعد لبنان، سلطة وشعباً، في تخطي هذه الصفحة الاليمة.

وفوندبرايدر هو احد مؤسسي جمعية الفريق الارجنتيني للطب الشرعي الانساني ورئيسها الحالي (وهي جمعية غير حكومية تهدف الى استخدام مكتسبات هذا الطب لكشف مصير المفقودين) استمع اليه الاهالي طويلاً، وتحسروا عندما قارنوا بين النموذج اللبناني والنماذج الدولية في التعامل مع ملف انساني مماثل.

يقول فوندبرايدر: "عملية البحث عن انسان ليست مجرد عملية تقنية فحسب، رغم ان ثمة قواعد علمية يجب احترامها، الا ان المسألة تتعدّى ذلك الى ضرورة مساعدة المجتمع المحلي، ولاسيما عائلات الضحايا على "الشفاء" مما مرت به، وبالتالي علينا التنبه الى مجموعة عوامل نفسية وانسانية، فضلا عن الامور السياسية والقضائية".

ولا يخفي الخبير الدولي انه "في كل قضية شبيهة، وخصوصا في تلك التي يكون فيها عملاء للسلطة متورطين في الجرائم، يكون من الضروري العمل مع اختصاصيين جنائيين مستقلين عن السلطة، مما يضمن شفافية العمل".

وشفافية العمل هذه توجب وفق فوندبرايدر، مراحل عدة متكاملة هي: "لجنة وطنية مستقلة من مهماتها الاساسية الحث على اطلاق المعتقلين ومن ثم البحث عن المفقودين، وجود مختبر للحمض النووي، مختبر علم الانسان تخزّن فيه البقايا البشرية وفق شروط علمية معينة، بنك المعلومات تجمع فيه كل المعلومات عن المفقود واهله، مركز لعائلات الضحايا وعلماء نفس وروحيين واطباء لاعداد الاهالي واخبارهم بالحقيقة مهما كانت". ويشدد على ان "الشفافية تبدأ في المرحلة الاولى حين ينقل الرفات من الميدان اي مسرح الجريمة الى المختبر، ومن هناك تتلاحق الخطوات".

لم يكن لويس يدرك مدى تقصير السلطات اللبنانية المعنية والمتعاقبة على الحكم منذ انتهاء الحرب، في اهمالها هذا الملف، تارة بحجة الوصاية السورية وطورا بحجة انعدام الوسائل المادية وغير المادية، وبدورهم لم يكن اهالي المعتقلين والمفقودين يدركون هذا النقص الهائل في الخطوات الرسمية المعتمدة حتى الان، رغم انهم لم يفاجأوا، فالتقوا الخبير الدولي واستمع كل واحد الى هواجس الاخر، وحددوا آليات العمل، علّ من يبادر رسميا ونهائيا هذه المرة، فتنتهي المأساة.

كيفية التخطيط للعمل: تحت هذا العنوان، باشر الخبير الدولي مهماته، منطلقا من قاعدة ثابتة تقول ان "البحث عن مفقود يعتبر عملا تكامليا وحرفيا بامتياز، واول ركيزة له لجنة وطنية مستقلة ينبغي ان تتألف من اعضاء من المجموعات المحلية المتنازعة سابقا، ومن اعضاء في الامم المتحدة والصليب الاحمر وفريق من المحققين وعلماء آثار وانسان، فضلا عن فريق آخر من الاطباء الشرعيين. كل هذه الالية تتم عادة بمساعدة من اهالي الضحايا، مما يؤمن نجاح العمل".

استمع الاهالي جيدا وقارنوا بين قواعد هذه اللجنة واللجان الرسمية التي تألفت طوال الاعوام الماضية، بعضها لم يكلف نفسه عناء توزيع بيانات تفصّل العمل، وآخر اكتفى بتوزيع تقرير من اربع صفحات، مصدرا "امره" باعلان وفاة كل مواطن مضى على اختفائه اربعة اعوام وأكثر.

مرات كثيرة تشعبت التساؤلات خلال ورشة العمل، وفي كل مرة كان لويس يرمق امامه ملفات عديدة مختصة بحالات الاخفاء القسري في اكثر من بلد، وعند كل معضلة كان يعود الى بحثه حول العلوم الجنائية في حقوق الانسان، ليوضح : "لا بد من هيئة مختصة في لبنان تعنى بمسألة الطب الشرعي والمقابر الجماعية، ولاسيما ان ليس هناك مراكز كثيرة مؤهلة للتشريح او معهد للطب الشرعي في لبنان. ومع معالجة قضية المعتقلين في السجون السورية، ينبغي ايضا معرفة مصير المفقودين والمختفين قسرا".

تجربة قبرص

نظر لويس الى صور نبش الحفر التي تمت في لبنان، عبر نماذج البرزة وعنجر وطرابلس وحالات، وتوجه الى الاهالي بالقول: "ليس فتح الحفرة هو العمل الاول، هناك العديد من الخطوات التي يجب ان تسبقها، كما ان ثمة نصا قانونيا يمنع التعدي على حرمة القبور. والاهم ان دور القوى الامنية يفترض ان ينحصر في موقع المؤازرة لا اكثر، في حين يجري التنقيب عادة بالفرشاة وليس بالجرافات".

هنا، دارت مناقشات واسعة، وخصوصاً ان فوندبرايدر استند الى التجربة القبرصية التي اشرف عليها في 2006 وانتجت قفل ملف المفقودين، فأبرز صورا، في حضور القائم بالاعمال القبرصي كوروس كرياكوس، تظهر كيفية نبش الحفر في قبرص وطريقة حفظ العظام في مختبرات مختصة. عندها، استطاع الاهالي المقارنة البسيطة المرئية بين النموذجين اللبناني والقبرصي وحاولوا الاستفسار اكثر، فشرح لويس ان اي تحقيق جنائي يتألف من خطوات ثلاث: "الاولى تشمل اجراء مقابلات مع الشهود واقارب الضحايا والسلطات المحلية والمرتكبين وانشاء قاعدة معلومات بغية التحقق من المعطيات وبناء الفرضيات حول القضية. الثانية: تحقيق خاص بعلم الاثار ويشمل القيام بمسح لمواقع المقابر المحتملة، واخيرا نبش الحفرة قبل ان تأتي المرحلة الثالثة عبر التحليل المخبري الذي يشمل اخضاع بقايا الجثث لفحص علمي يحدّد سبب الوفاة وهوية الضحية، وهذه المراحل الثلاث تطلبت فريقا متعدد الاختصاص والخبرة".

وفق لويس، فان "النموذج القبرصي كان مثاليا، ولم يصطدم بأي قيود سياسية او عراقيل مالية. ونجاحه مرتبط في شكل اساسي بوجود نية محلية للحلّ، بعد انهاء حالة العنف هناك". واذ استفاض في شرح العديد من تقنيات فحص الحمض النووي للعظام الكبيرة والصغيرة، اشار الى "صعوبة البحث عن رفات في امكنة شيّدت فوقها ابنية، بحيث تبقى هذه المسألة رهنا بحجم البناء وضخامته. الا ان الصعوبة البالغة هي في حالة رمي الجثث في البحر، فمن المستحيل ايجادها احيانا، لان الهدف الاساسي من جريمة مماثلة اخفاء كل آثارها".

صحيح ان تقليد النموذج القبرصي قد لا ينجح في لبنان، لكن الاستعانة به واجب، ولا سيما لجهة الاستفادة من مقومات نجاحه. ويفصل لويس عوامل النجاح كالاتي: "الارادة السياسية المحلية، الدعم الدولي، التمويل وقد يأتي من جهات خارجية كالاتحاد الاوروبي او غيره. في كل عملية الكثير من التعقيدات، لكن هذا العمل الانساني يتطلب الكثير ويستحق".

ويلفت الى ان "ليس هناك من مهلة زمنية محددة للبحث عن الاعزاء على قلوب اهلهم. ففي الارجنتين مثلا وبعد 28 عاما على عمليات القتل، لا نزال نجد الاقارب وافراد الاجيال الشابة يبحثون عن مقابر جماعية".

وانطلاقا من معادلة تعتبر ان تقطيع الذاكرة لا يجوز اذا كنا فعلا نريد المصالحة، خلص مركز "أمم" في نهاية ورشة العمل الى وضع خريطة تقريبية للمقابر الجماعية المحتملة في لبنان، حوت 38 مكانا مختلفا، موزعا جبلا وساحلا، وطالب ايضا بـ "خريطة للمواقع العسكرية السورية وغيرها والتي كانت تعتبر مراكز استخبارات".

اللافت ان الورشة انتقلت الى المنحى العملي حين ابدى القائم بالاعمال القبرصي استعداده لاي مساعدة، ودعا اللبنانيين الى اعداد طلب رسمي للافادة من النموذج القبرصي في ملف المفقودين، فيما اختار فوندبرايدر توجيه رسالة مزدوجة: الى اهالي المعتقلين والسلطات، فقال: "على السياسيين الاقتناع بأن نبش المقابر الجماعية ليس للادانة، لان البحث عن مفقودين لا يتعلق بموتى فقط بل بأحياء. القضية تعني البحث عن راحة الاهالي بعد حالات العذاب المزمنة التي عاشوها".

وبعد، واذا كان السياسيون او "المتورطون" "تعموا" بقانون العفو، فمن ابسط حقوق الانسانية ان يستريح اهالي المفقودين، ويعرفوا مصير ابنائهم. المسألة ليست نبش قبور او اذكاء فتن بل هي مصالحة ومصارحة مع الذات اولا والمجتمع ثانيا.

فوندبرايدر في سطور

عمل لويس فوندبرايدر مستشارا للجان تقصي الحقائق في الارجنتين والسالفادور وهايتي والبيرو وجنوب افريقيا والمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة ولجنة المفقودين في قبرص ولجنة التحقيق في جمهورية الكونغو الديموقراطية ولجنة الامم المتحدة للتحقيق في دارفور ولجنة البحث عن بقايا تشي غيفارا ولجنة الصليب الاحمر في مشروع المفقودين والمركز الدولي للعدالة الانتقالية وسواها.

ويدرّس فوندبرايدر مادة الطب الشرعي الانساني في كلية الطب التابعة لجامعة بوينس ايرس، ونال عام 1989 جائزة ريبوك لحقوق الانسان. فهل تستفيد منه السلطات اللبنانية؟

البحث عن مفقودين.

معتقلون واهمال، والاهالي يعتصمون منتظرين.

متى الدور اللبناني؟

عمل الفريق الارجنتيني خلال العقدين الماضيين على عدد من الملفات في اماكن عدة من العالم، وساهم في دفع عدد من المحاكمات قدما وطي صفحة الاقتتال. كذلك، قام الفريق بنشاط تدريبي لتأهيل اختصاصيين محليين كما في تشيلي وغواتيمالا وجنوب افريقيا وقبرص، بقرار داخلي من هذه البلدان بعدما انهت نزاعاتها المحلية. فمتى يحين دور التجربة اللبنانية؟

احد المختبرات في قبرص.